

المبدع ومبدعاته

سبح ربك الأعلى الذي خلق فسوّى والذي قدّر فهدي.

ما دامت النحلة تحوم حول الزهرة دون أن تهتدي الى قلبها لترتشف منه الرحيق فإنها تظل تحدث الطنين والجلبة وتكون متهيئة للأسع.

هكذا الإنسان اذا نظر الى هذا الكون الفسيح وراقب كيف أن أفلاكه ومجراته وكواكبه كل يدور في حسابان بناء على قوانين دقيقة لا مكان فيها للخطأ أو العبث نعرف بالفطرة أن لهذه الموجودات المنظمة صانع قد نظمها في أحسن تقويم.

إذا ما سأل الإنسان نفسه لو أن الشمس زادت من حرارة أشعتها أو أنقصت منها ماذا كان سيحدث؟ هل تحترق الأرض أو تتجمد فتتصنم وتتصخر. لو أرادت الذرات أن لا تتماسك في الموجودات وتنافرت هل ستبقى موجودات أو أن كل شيء سيغدو فراغا هائلا تسبح فيه ذرات لا متناهية. لو سأل الإنسان نفسه هذا السؤال لو أنه كائن لا يملك الوعي هل كان للوجود من قيمة هل كان له معنى.

وهل يمكن أن توجد الموجودات دون أن تدرك معنى ذاتها أو يدرك أحد معناها.

كل هذه الأمور وأمور كثيرة غيرها تجعل الإنسان يقتنع بأن هذا الوجود هو وجود غائي وليس وجودا عبثيا وأنه نظم تنظيما دقيقا لا مجال فيه لأي خطأ.

فهناك قوانين صارمة تحكم صيرورته وتجعل كل سبب فيه يتبع سببه. وبالتالي ما على الإنسان إلا أن يتشبه بالنحلة فيفتش عن قلب السور حيث رحيق الحقائق التي تنير السبيل.

على الإنسان أن يفتش عن السور الذي يعطي للوجود معناه ويجعل للإنسان غاية يسعى إليها فيكسب شرف المسعى إن لم يستطع الوصول. ليعد الإنسان الى نفسه ليسألها هل يمكن أن يوجد نظام من غير منظم هل المادة العمياء مهما تفاعلت جزيئاتها وعناصرها يمكن أن تبدع نفسا عاقلة تعقل ذاتها وتعقل ما يحيط بها وتعقل أن لكل نتيجة سببا ولا شيء يوجد من الصدفة أو العبث.

إذا نظر الإنسان الى جسده لوجده يعمل بأحسن تقويم بل لوجده أعظم وأدق وأفعل آلة في هذا الوجود.

الإنسان اليوم يقاس علميا ما بين دماغه وجهازه العصبي وما بين ثورة المعلومات الحديثة وما أنتجته من كمبيوتر وإنترنت وأقمار صناعية فيجد أن جهازه العصبي ودماغه يعملان في حقل الإتصالات وإستقبال وإرسال الرسائل بشكل أدق وأسرع وأكثر تطورا بعشرات المرات. إذا نظر الإنسان الى الطبيعة وتعرف الى قوانينها عبر علوم الفيزياء والكيمياء والأحياء لوجد نواميس ثابتة وقوانين في أرقى تنظيم.

هل كل ذلك محض صدفة أم أن لهذه الموجودات من واجد ولهذه الصناعات من صانع. إنه الله الحقيقة المنقوشة في جوهر كل ذي نفس ناطقة وصاحبها يتعرف عليها بالفطرة إذا صفت نفسه وتشفت بتناغمها مع قوانين الطبيعة ومنطق العقل. وكذلك يتعرف عليها من خلال رجال مختارين إصطفاهم الله وشرفهم بالنبوة والولاية كي ينيروا طريق العباد الى بارئهم ويعلموا الناس بلغاتهم ومستوى وعيهم الحقائق التي تعطي لوجودهم معنى يحققون به إنسانيتهم.

ونحن بالفطرة أدركنا ظلال معنى الألوهة. ولكن الفطرة وحدها لا تجعلنا قادرين على الوصول الى الغاية التي تجعلنا نبلغ كمالنا الإنساني وهي تحقيق الله في نفوسنا. كيف نحقق الله في نفوسنا سؤال طرحه آلاف الزهاد والعباد والمتصوفين والفلاسفة والعلماء. بعضهم إعتد على العقل ومنطقه فقال أن الموجودات إذا أطرقت أسباب وجودها لا بد أن تصل في النهاية الى موجد قد أوجدها هو الله.

وبعضهم إعتد على النقل ونصوصات الكتب المقدسة واختلف الكثيرون على تفسير تلك النصوص. والبعض إعتد على النقل وفسر حقائق النقل بالعقل فوصل الى محجته البيضاء.

والموحدون ممن إعتدوا النقل بكامل نصه القرآني الكريم وفسروا النقل بالعقل فحققوا الله في نفوسهم بعد أن عرفوه حق معرفته. ثم أدوا جميع فروضاته وتطوروا وارتقوا في مسالك التوحيد حتى استطاعوا تجاوز مقامات الفروض الى أحوال المحبة فأعزهم الله بالرؤية والإضافة والشرف والخلة والإصطفاء.

فسبحان من صَدَّتْ له العيون بدمعها والقلوب بوجيبها والآذان بركزها والأضلع
بتأويبها. سبحان الذي جعل أمام كل مخلوق طريقا إليه وفي كل نفس مؤمنة نورا
منه.

كمال يوسف سري الدين